التأثيرات الأندلسية على العمارة والفنون المغربية من العصر المرابطي حتى نهاية العصر المريني (462 – 869 هـ \ 1069 – 1464 م) : نظرة عامة في ضوء المصادر والشواهد الأثرية

إعداد :

أ.د : آمال أحمد العمري
أستاذة الآثار الإسلامية – كلية الآثار – جامعة القاهرة

أ.د : علي أحمد الطايش
أستاذ الآثار الإسلامية – كلية الآثار – جامعة القاهرة

رامي ربيع راشد
مدرس مساعد – كلية الآثار – جامعة الفيوم

ملخص :

للأثر الأندلسي حضور كبير في الحضارة المغربية بكافة مجالاتها المتعددة ، سواء أكانت سياسية وإدارية ، أو ثقافية وفكرية ، أو حتى اجتماعية ودينية . وهذه الورقة البحثية ، نظرة عامة ، حول ذلك الأثر الأندلسي ، من خلال أحد أهم المجالات الحضارية ، ألا وهو مجال العمارة وفنونها ، وذلك اعتمادا على ما جادت به المصادر التاريخية ، وما تبقى من آثار مادية ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

كان جواز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس برسم الجهاد ، وانتصاره على الصليبيين في معركة الزلاقة (479هـ \ 1086م) [1] ، نقطة تحول جذرية في تاريخ العمارة والفن المغربي ، إذ كان بداية عهد جديد ، وفاتحة خير ، بتدفق التأثيرات الأندلسية ، بصورة رسمية رعاها هؤلاء المرابطون ، ذوي الأصل الصحراوي [2] ، بعدما عاينوا ما لا صبر لهم عليه ، ولا طاقة لهم به ، من رقة ، حس مرهف ، وذوق فني رفيع ، فتبدلت أحوال البداوة ، وولى عهد التقشف والخشونة : (لأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى ، وأم قراه ... فانقطع إلى أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته ، حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار) [3] .

إن النشأة البدوية لهؤلاء المرابطين لا تؤهل لوصولهم إلى هذا التقدم الفني الذي لمسناه في مخلفاتهم [4] ، فقد كان الفن المرابطي فقيرا قبل أن يحتك بالأندلس ، إذ كان عاطلا من الزينة ، متفقا في ذلك وخشونة مؤسسي الدولة ، فلما تم اتحاد الأندلس والمغرب على عهد علي بن يوسف ، تأثر المغرب فيما تأثر به من مظاهر الثقافة الأندلسية ، بكلف الأندلسيين بالإسراف في الزخرف [5] . وهذا ما يؤكده ابن خلدون ، من أن الدولة عندما تكون بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء إلى غير قطرها [6] . ولنترك المجال لكل من الإفادات المصدرية والشواهد المادية لتفصح لنا عن ذلك . يقول ابن القاضي : (وما زال كبير لمتونة يوسف بن تاشفين ، يؤكد في زيادة المساجد بفاس وسقاياتها وحماماتها وفنادقها وإصلاح أسوارها ، وأقدم من قرطبة جملة من

---

[1]– عن هذه الواقعة انظر : عبد الواحد بن علي المراكشي : " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " . شرحه واعتنى به : د. صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 ، 1426هـ \ 2006م ، صـ صـ 99 – 101 .، علي بن أبي زرع الفاسي : " الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس " . راجعه : عبد الوهاب بنمنصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ط2 ، 1420هـ \ 1999م ، صـ صـ 184 – 191 .، مجهول : " الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية " . حققه : د. سهيل زكار ، أ. عبد القادر زمامة ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1399هـ \ 1979م ، صـ صـ 52 – 66 .، أحمد بن خالد الناصري : " الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى " . منشورات وزارة الثقافة والاتصال ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2001م ، جـ2 ، صـ صـ 208 – 218 .

[2]– عن أصل المرابطين انظر : ابن أبي زرع : " الأنيس المطرب " . صـ صـ 152 – 153 .، الناصري : " الاستقصا " . صـ 159.

[3]– المراكشي : " المعجب " . صـ 123.

[4]– جاء في وصف قبائل هؤلاء المرابطين : (ومنهم قوم لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا ثمارا ، وإنما أموالهم الأنعام ، وعيشهم اللحم واللبن ، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزا ، إلا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق) .

ابن أبي زرع : " الأنيس " . صـ 153 .

[5]– ليبولدو توريس بلباس : " الفن المرابطي والموحدي " . ترجمة : د. سيد غازي ، دار المعارف بمصر ، ط1 ، 1391هـ \ 1971م ، صـ 20 .

[6]– عبد الرحمن بن خلدون : " المقدمة " . تحقيق : إبراهيم شبوح ، إحسان عباس ، القيروان للنشر ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط1 ، 2006 ، جـ2 ، صـ 121 .

صناع الأرحى فبنوا منها كثيرا) [7] . كما يفيد الإدريسي بأن يوسف بن تاشفين ، استعان كذلك بأحد العرفاء يدعى : " عبيد الله بن يونس " ، لبناء الخطارات (قنوات المياه الجوفية) بمراكش بعد تأسيسها ، ويرى البعض أن هذا العريف يغلب على الظن أنه أندلسي [8] ، ويفيد الإدريسي أيضا ، أن علي بن يوسف بن تاشفين ، عندما عزم على بناء قنطرة على وادي تنسيفت استقدم من الأندلس الخبراء في بناء القناطر [9] .

إذا ما كانت هذه الإفادات المصدرية – على ندرتها – تؤكد هذا الحضور الأندلسي بالمغرب ، فإن الشواهد المادية القائمة إلى الآن – على ندرتها أيضا – تجلي لنا ذلك الحضور بصورة لا يمكن إنكارها ، فها هو الجامع الأعظم المرابطي بتلمسان (530هـ \ 1135م) ، تجسد لنا واجهة محرابه والقبة المعرقة (المضلعة) التي تعلوه ، صورة حية لواجهة محراب جامع قرطبة وقبته المعرقة كذلك التي تعلوه [10] . كما أن البلاط المحوري بالجامع المذكور ، يعلوه عند منتصفه بوسط بيت الصلاة – وليس عند نهايته من جهة الصحن كما هو المعهود – قبة أخرى – إضافة إلى تلك التي تعلو المحراب – محاكيا في ذلك تمام المحاكة للبلاط المحوري بجامع قرطبة بعد الزيادة الحكمية به (351 – 355هـ \ 962 – 966م) ، والذي أضيف إليه بالزيادة المذكورة ، قبة عند بدايته فوق المحراب ، وأخرى بمنتصفه بوسط بيت الصلاة عند بداية حدود تلك التوسعة [11] .

---

[7]– أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي : " جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس " . تحقيق وتعليق : د. محمد بن عزوز ، مركز التراث الثقافي المغربي ، الدار البيضاء ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط1، 1435هـ \ 2014م ، صـ 58.

[8]– محمد محمد الكحلاوي : " عرفاء البناء في المغرب والأندلس وأهم أعمالهم المعمارية " . ضمن : " السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاء " ، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، ط1 ، 1417هـ \ 1996م ، القسم الثالث : " الحضارة والعمارة والفنون " ، صـ 205 .، محمد زنيبر : " مراكش أوسع باب لنفوذ الحضارة الأندلسية إلى المغرب " . ضمن كتاب : " دراسات في الحضارة الإسلامية وثقافة الغرب الإسلامي " ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، سلسلة : أبحاث ودراسات رقم 42 ، مطبعة الأمنية ، الرباط ، ط1 ، 1431هـ \ 2010م ، صـ 325 .

[9]– السيد عبد العزيز سالم : " قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس " . دار النهضة العربية ، بيروت ، 1972م ، جـ2 ، صـ 51 .، عبد العزيز بن عبد الله : " الأندلس والمغرب وحدة أم تكامل " . مجلة التاريخ العربي ، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة ، الرباط ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، العدد 2 ، ربيع 1417هـ \ 1997م ، صـ 74 .

[10]– عبد الواحد ذنون طه : " التطور العمراني لمدينة تلمسان الإسلامية : دراسة في النصوص الخاصة بـ : أغادير ، تاكرارت ، المنصورة " . ضمن كتاب : " تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني " ، أعمال ملتقى دولي بتلمسان أيام 3– 5 أكتوبر 2011م ، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، الجمهورية الجزائرية الشعبية ، 2011م ، جـ1 ، صـ صـ 18 – 19 .، مبارك بوطارن : " التأثيرات الفنية الأندلسية على المباني الدينية في تلمسان " . ضمن كتاب : " تلمسان الإسلامية " ، جـ2 ، صـ صـ 236 – 238 .

[11]– السيد عبد العزيز سالم : " العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها " . ضمن كتاب : " بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار " ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1992م ، القسم الثاني ، صـ 31 . وللمزيد عن مظاهر التأثير الأندلسي على هذا الجامع في العصر المرابطي انظر : السيد عبد العزيز سالم : نفسه . صـ صـ 31 – 32 .، مبارك بو طارن : " التأثيرات الفنية الأندلسية " . صـ صـ 238 – 239 .

هـا هـي أيـضا القبـاب المقربـصة ، فـاخرة الـصنعة ، رفيعـة الـذوق ، بـالبلاط المحـوري (الأوسط) بجامع القرويين بفاس ، ضمن التوسعة المرابطية الكبرى بالجامع المذكور [12] ، وقد اشتمل بعضها على نصوص تأسيسية ورد فيها أسماء صانعيها وهم من الأندلسيين [13] ، وإضافة إلـى هؤلاء الـصناع والفنيين ، فـإن الـذي كـان متوليـا الإشـراف علـى هـذه الأعمـال الكبـرى هـو القاضـي أبـي محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي [14] ، كما اشتملت تلك القباب على نصوص دينية وعبارات دعائية بخط كوفي أندلسي لا شك فيه [15] . ليس هذا وحسب ، بل إن من أكبر الأدلة على شغف المرابطين بالفن الأندلسي ، والقرطبي على وجه الخصوص ، تلك التيجان التي جلبوها من قرطبة ليقيموها في تلك التوسعة الكبرى ، فوق الأعمدة الأربعة الحاملة لقوس المحراب ، وكذلك فوق الأعمدة الخاصة بباب مصلى الجنائز [16] .

فضلا عن ذلك ، فهناك المنبر العجيب النقش ، البديع الصنعة ، منبر جامع الكتبية ، القرطبي المولد والنشأة [17] ، المراكشي الدار والقرار ، بجامع علي بن يوسف ، والذي يعد صدى

---

[12]– كان الفراغ الكامل من أعمال هذه التوسعة الكبرى – على حسب ما تفيد به المصادر – عام (538هـ \ 1143م) ، أما هذه القباب فتشير نصوصها التأسيسية إلى عام (531هـ \ 1136م) . ولعل هذا التقارب الزمني الشديد بين تاريخ التوسعة الكبرى بجامع تلمسان الأعظم كما هو مذكور أعلاه عام (530هـ \ 1135م) ، وتاريخ هذه الأعمال الفنية بجامع القرويين بفاس عام (531هـ \ 1136م) ، يحمل على الاعتقاد القوي بأن تلك المدرسة الأندلسية التي باشرت أعمال التوسعة الكبرى بجامع تلمسان ، هي نفسها التي انتقلت على الفور لتباشر أعمال التوسعة الكبرى كذلك بجامع القرويين بفاس ، وكلاهما على عهد علي بن يوسف بن تاشفين .
ابن أبي زرع : " الأنيس " . صـ 76 .،
Henri Terrasse : " La Mosqée Al-Qaraouiyin a Fès " . Paris , 1968 , PP78,79 .

[13]– من ذلك ، ما جاء منقوشا أسفل إحدى القباب ونقرأ فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد صنع هذه القبة سلمة بن مفرج) . وعلى الرغم من أنه لا يعرف ماهية هذا الفنان على وجه التحديد من خلال هذا النقش ، إلا أن الذي يمكن اعتقاده ، أنه أندلسي قرطبي ، إذ أن هذا الاسم من الأسماء التي كانت متداولة في الأندلس منذ الوقت المبكر ، وخير شاهد لذلك هو اسم المؤرخ القرطبي الشهير : " الحسن بن مفرج " . انظر :
السيد عبد العزيز سالم : " قرطبة حاضرة الخلافة " . جـ1 ، صـ 292 .،
Terrasse : " La Mosqée Al-Qaraouiyin " . P 78.

[14]– علي الجزنائي : " جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس " . المطبعة الملكية ، الرباط ، 1387هـ \ 1967م ، صـ 55 .

[15]– انظر : الحاج موسى عوني : " فن المنقوشات الكتابية في الغرب الإسلامي " . منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ، سلسلة أبحاث ، 2009م ، منشورات عكاظ للطباعة ، 2010م ، صـ صـ 70 – 71 .، أنتونيو فرناندیز – بويرتاس : " فن الخط العربي في الأندلس " . ضمن كتاب : " الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس " . تحرير : د. سلمى الخضراء الجيوسي ، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط2 ، 1999م ، جـ2 ، صـ صـ 934 – 935 .

[16]– انظر :
Terrasse : " La Mosqée Al-Qaraouiyin " . P42 ., Boris Maslow : " Les Mosqées de Fès et du Nord du Maroc " . Paris , PXI .

[17]– اشتمل هذا المنبر على نقش تأسيسي يفيد أنه صنع بقرطبة . انظر :
محمد عبد العزيز مرزوق : " الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس " . دار الثقافة ، بيروت ، 1972م ، صـ 159 .، جوميث مورينو : " الفن الإسلامي في إسبانيا " . ترجمة : د. السيد عبد العزيز سالم ، د. لطفي عبد البديع ، مؤسسة شباب الجامعة ، الأسكندرية ، د.ت ، صـ 350 .

حقيقي لمنبر جامع قرطبة [18] ، ونفاسته تلك [19] ، هي التي أبهرت مؤسس دولة الموحدين ، عبد المؤمن بن علي ، فاستولى عليه – ضمن ما حازه من ذخائر ونفائس علي بن يوسف – ونقله إلى جامعه الجديد بعد هدمه للجامع المرابطي [20] .

أما قبة البارودیین [21] ، فإنها بعقودها المتراكبة وزخارفها الغنية ، وخيالها الفائق ، معجزة فنية خارقة ، وإذا كان تصميم عقودها يكشف عن نسب قرطبي بعيد ، فإن أسلوبها الفني يذكر بالإسراف الزخرفي في أسلوب عصر الطوائف ، وهي كأثر أندلسي الطابع في خطوطه الرئيسية ، تعبر تعبيرا بليغا عن معارضة المذهب الاتباعي ، بميلها إلى التجزئة والإسراف في الزخرف [22] . وأخيرا ، فإن البعض يؤكد على أن مدينة فاس عرفت من خلال آثارها المرابطية ، امتدادا للفن الأندلسي ليس فقط لفن عصر الطوائف ، ولكن أيضا للفن الأموي بقرطبة [23] .

هكذا تشهد هذه الآثار – رغم قلتها – على ثورة فنية كبرى في تاريخ العمارة والفن المغربي ، برعاية هؤلاء الأمراء الجدد ، منذ أن وطئت أقدامهم أرض الأندلس ، ومستهم رقتها ، فسرعان ما انفعلوا لتلك الثقافة الجديدة ، وأصبحوا بذلك رعاة للفن الأندلسي على أرضهم ، بعدما نقلوه على يد هؤلاء الصناع والفنيين الأندلسيين الذين جلبوهم ، فصار هو السائد بحواضرهم المغربية ، ليشهد بذلك عهد الأمير علي بن يوسف – على حد تعبير البعض – أسبنة الإمبراطورية المغربية بقوة ، وعلى مدى واسع أكثر مما كان عليه الأمر في عهد أبيه [24] ، واللذين إليهما يرجع الفضل في تدفق سيل هذا التيار الأندلسي الوافد على أرض المغرب [25] .

ترك المرابطون ذلك الأثر الجلي للحضور الأندلسي على مآثرهم بالمغرب ، كشعلة وهاجة يستضيئ بها من يأتي بعدهم ، فسرعان ما قامت دولة الموحدين ، على أكتاف دولة المرابطين ،

---

[18]– انظر : بلباس : " الفن المرابطي والموحدي " . صـ صـ 56 – 57 .

[19]– جاء في وصف هذا المنبر : (في غاية الإتقان ، قطعاته عود وصندل أحمر وأصفر ، وصفائحه من الذهب والفضة) .
مجهول : " الحلل الموشية " . صـ 144 .

[20]– مجهول : نفسه . نفس الصفحة .

[21]– عنها انظر :
Boris Maslow : " La Qubba Barudiyyin à Marrakuch " . Al-Andalus , 1948 , Fasc , I , pp 180 – 185

[22]– بلباس : " الفن المرابطي والموحدي " . صـ 47 .

[23]– انظر :
Catterine Cambazard – Amahan : " Le Décor sur Bois dans L´Architecture de Fès " . Paris, 1989,P34.

[24]– ليفي بروفنسال : " الحضارة العربية في إسبانيا " . ترجمة : د. الطاهر أحمد مكي ، دار العالم العربي ، القاهرة ، ط1 ، 1431هـ\ 2010م ، صـ36 .

[25]– انظر أيضا :
Henri Terrasse : " L´Art Hispano – Mauresqe des origins au XIII siecle " . Paris , 1932 , p 223., Georges Marçais : " L´Architecture Musulmane d Occident , Tunisie , Algerie , Maroc , Espagne et Sicile " . Paris , 1954 , PP 185 – 187 .

بعد معارضة صريحة لما كان عليه هؤلاء المرابطين ، من انغماس في حياة الترف والملذات [26] ، إلا أنه رغم تلك المعارضة [27] – الظاهرية – لم يلبث الكومي ، عبد المؤمن بن علي ، مؤسس الدولة بعد مهديها التومرتي ، أن راقه الفن الأندلسي الجذاب ، المفعم بالحيوية والرقة المفرطة ، فنقل – كما سبق الإشارة – إلى جامعه الجديد المنبر المرابطي ، وما ذاك إلا لنفاسة تلك التحفة الفنية الرائقة [28] ، ومع هذا المنبر صنع لجامعه – على عادة الأمراء بالأندلس – مقصورة من الخشب لها ستة أضلاع ، تسع أكثر من ألف رجل ، تخرج مع المنبر وتدخل ، بحيل ميكانيكية عجيبة ، إذ كان المتولي لذلك رجل من أهل مالقة ، يقال له الحاج يعيش ، وهو الذي تولى كذلك النظر في بناء جبل الفتح [29] ، والتي عنها يشير ابن صاحب الصلاة ، على حسب ما جاء في الكتاب الكريم : (أن يستنفروا جميع الفعلة من البنايين والجيارين والنجارين والعرفاء من جميع بلاد الأندلس التي تحت نظر الموحدين – أعانهم الله – ويستعجلوا بالوصول إلى الجبل لامتثال الأمر الكريم ... ومشى من إشبيلية العريف أحمد بن باسه بجميع البنائين ومن يشاكلهم ... وأحكم البناؤن فيه بناء من القصور المشيدة والديار ... مما هو عجيب في الآثار) [30] .

هكذا سار الموحدون على اقتفاء آثار من سبقهم من المرابطين ، في الاستعانة بالصناع والفنيين الأندلسيين لتشييد مآثرهم بالمغرب ، فنقل هؤلاء الموحدون من الأندلس إلى المغرب ، كما يقول ابن خلدون : (حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها ، بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس ، وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعا وكرها ، وكانت من اتساع النطاق ما علمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ، ومعظمها من أهل الأندلس) [31] . وتأكيدا لكلام ابن خلدون ، فإن ابن سعيد المغربي – وهو شاهد عيان – يقول : (إن

---

[26]– انظر : السيد عبد العزيز سالم : " تاريخ المغرب في العصر الإسلامي " . مؤسسة شباب الجامعة ، الأسكندرية ، ط2 ، 2010م ، صـ 653 .

[27]– يشير ابن أبي زرع إلى تلك المعارضة عند حديثه عن محراب جامع القرويين ضمن أعمال التوسعة المرابطية بقوله : (وكان يبهت الناظرين إليه من حسنه ، ويشغل المصلين ، فلما دخل الموحدون المدينة ... خاف فقهاء المدينة وأشياخها أن ينتقد عليهم الموحدون ذلك النقش والزخرف الذي فوق المحراب ، لأنهم قاموا بالتقشف والتقلل ، فقيل لهم إن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي يدخل غدا المدينة مع أشياخ الموحدين برسم صلاة الجمعة بالقرويين فخافوا لذلك ، فأتى الحمامون الجامع تلك الليلة ، فنصبوا على ذلك النقش والتذهيب الذي فوق المحراب وحوله بالكاغد ، ثم لبسوا عليه بالجص ، وغسل عليه بالبياض ودلك ، فنظفت تلك النقوش كلها وصارت بياضا " . ابن أبي زرع : " الأنيس " . صـ 76 .

[28]– مجهول : " الحلل " . صـ 144 .

[29]– نفسه : صـ صـ 144 – 145 .

[30]– عبد الملك ابن صاحب الصلاة : " المن بالإمامة " . تحقيق : د. عبد الهادي التازي ، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، ط4 ، 2012م ، صـ 86 . وإلى هذا المهندس ينسب البعض كذلك بناء جامع الكتبية الأول . يوسف أشباخ : " تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين " . ترجمة وتعليق : محمد عبد الله عنان ، منشورات المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، 2011م ، جـ2 ، صـ 253 .

[31]– ابن خلدون : " المقدمة " . جـ2 ، صـ 55 .

حضرة مراكش هي بغداد المغرب ، وهي أعظم ما في بر العدوة ، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم ، وذلك مشهور معلوم إلى الآن) [32] .

لعل تضافر هذه الأدلة ، التي تؤكد ذلك الحضور الأندلسي بالمغرب الموحدي ، تجعل من المنطقي ، التسليم بأن ما نراه اليوم من مخلفات هذه الدولة ، بحواضرهم الكبرى بمراكش ، الرباط ، وفاس ، من الأسوار وأبواب المدن الضخام ، والمساجد الكبرى الفسيحة ، بديعة الوضع والترتيب ، وصوامعها الشامخة الرائقة ، إنما هي عمل هؤلاء الصناع الأندلسيين ، وهكذا تأسبن الموحدون [33] ، كما تأسبن قبلهم المرابطون ، ليشهد المغرب امتداد ذلك التيار الأندلسي المتدفق بكل ما يحمله من رقة وجمالية وذوق رفيع ، غير أن هذا العصر ترك بصمته الجلية على هذا الفن الأندلسي ، بالميل – على خلاف ذوق من سبقهم – نحو البساطة والتجريد ، والبعد عن الإسراف والبذخ في الزخرفة ، كانعاس لمبدأ دعوتهم التي قامت بالتقشف والتقلل [34] ، فبدا فنهم ذا شخصية واضحة ، قوية متينة .

يتضح مما سبق ، كيف رعى كل من هؤلاء المرابطين والموحدين ذلك التيار الأندلسي الذي اصطبغت به مآثرهم التي شيدوها بالمغرب ، فهل كان الأمر كذلك في العصر المريني ؟

إنه على الرغم من الأصل البدوي الصحراوي لبني مرين [35] ، كحال من سبقهم ، وعلى الرغم من أن الأندلس كان قد خرج من تحت السيطرة السياسية المباشرة للمغرب في ذلك العصر – خلاف لما كان عليه الحال في العصرين المرابطي والموحدي – إلا أن هذا أو ذاك لم يكن حجر عثرة أمام استمرار تدفق التيار الأندلسي على العمارة والفنون بالمغرب المريني ، بل شهد انتعاشا كبيرا ، وكان مرده في ذلك إلى عاملين رئيسيين هما : كثرة الهجرات الأندلسية ، بعد سقوط كبرى الحواضر الأندلسية في أيدي الصليبيين ، مثل قرطبة (سقطت عام 633هـ \ 1235م) ، بلنسية ومرسية (637هـ \ 1239م) ، إشبيلية (646هـ \ 1248م) [36] . أما العامل الثاني ، فهو تلك العلائق الودية بين كل من حكام بني مرين بالمغرب ، وبني نصر بالأندلس .

---

[32]– أحمد بن محمد المقري التلمساني : " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " . حققه : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، ج3 ، صـ 153 .

[33]– ليفي بروفنسال : " الحضارة العربية " . صـ صـ 38 – 40 .

[34]– ابن أبي زرع : " الأنيس " . صـ 76 .

[35]– للمزيد عن أصل بني مرين ، انظر : محمد بن شقرون : " مظاهر الثقافة المغربية " . دار الثقافة ، الدار البيضاء ، 1406هـ \ 1985م ، صـ صـ 16 – 26 .

[36]– السيد عبد العزيز سالم : " الأندلس " . ضمن كتاب : " دائرة معارف الشعب " ، كتاب الشعب 61 ، مطابع الشعب ، القاهرة ، 1959م ، صـ صـ 12 – 13 .

فيما يتعلق بالعامل الأول ، يطالعنا ابن خلدون بإفادة مهمة للغاية ، ضمن حديثه عن أثر الخط الأندلسي على الخط بإفريقية والمغرب ، بقوله : (وحصل في دولة بني مرين بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي ، لقرب جوارهم ، وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريبا ، واستعمالهم إياهم سائر الدولة) [37] . إن هذا الإشارة المصدرية تفيد بأمرين على جانب كبير من الأهمية ، هما : أن مدينة فاس كانت في العصر المريني محط رحال الكثير من المهاجرين الأندلسيين [38] ، لكونها حاضرة المغرب في ذلك العصر ، والأمر الثاني هو استعمال حكام بني مرين لهم سائر أيام دولتهم ، وليس من الإنصاف قصر هذا الاستعمال على الجوانب الإدارية والسياسية ، دونما أن يدخل في ذلك الجانب العمراني ، ولعل هذا هو مفاد كلام ابن خلدون ذاته ، إذ ساق هذا الخبر كأحد مظاهر التأثير الأندلسي على أحد الجوانب الحضارية بالمغرب المريني وهو الخط ، بعيدا في ذلك كل البعد عن الجوانب السياسية والإدارية لجهاز الدولة .

مما يؤكد الحضور الأندلسي كذلك بمدينة فاس ، حاضرة ملوك بني مرين ، ويدخل في الوقت ذاته ضمن العامل الثاني ، وهو العلائق الودية بين حكام بني مرين بمملكة فاس ، وبني الأحمر بمملكة غرناطة ، ما نجده من إفادات مهمة أيضا عند ذي الوزارتين ، ابن الخطيب [39] ، عن استقرار العديد من أهل البيت النصري ، حكام غرناطة ، في جوار ملوك بني مرين بحاضرتهم فاس ، وذلك على حسب ما نطالعه ضمن حديثه عن أصول وفروع حكام بني نصر ، بقوله : (وأعقب (فرج) ولدا اسمه إسماعيل هو الآن بالمغرب مشكور الحالة ، وإسماعيل (كذا) واعتقل مدة ثم استقر الآن بالمغرب ... ويوسف ... وأعقب ثلاثة من الذكور: محمدا ... وثار به أخوه فانتقل إلى المغرب في خبر طويل ... وأما محمد ثاني ولد ... فأعقب أولادا منهم يوسف ... فأما يوسف منهم فهو الآن قد أسن بالمغرب تحت علالة جراية ، وله ابن يباشر خدمة السلطان ، وأما فرج فحج ثم هلك بالمغرب ، وأما محمد فهو أيضا بالباب المريني حميد

---

[37]– ابن خلدون : " المقدمة " . جـ2 ، صـ 143 .

[38]– للمزيد عن الهجرات الأندلسية إلى المغرب في العصر المريني انظر : أمل ربيع إسماعيل : " الأندلسيون في المغرب الأقصى في عصر بني مرين (668 – 869هـ \ 1269– 1465م) " . رسالة ماجستير ، إشراف : أ.د : عبادة عبد الرحمن كحيلة ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، 1429هـ \ 2008م ، صـ صـ 56 ، 61 – 77 .

[39]– أحد أشهر كتاب ورجال البلاط النصري بغرناطة ، ترجمته انظر : لسان الدين ابن الخطيب : " الإحاطة في أخبار غرناطة " . تحقيق : محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1393هـ \ 1973م ، جـ4 ، صـ صـ 438 – 462 .، أبي الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر الأندلسي الغرناطي : " نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان " . حققه وقدم له : محمد رضوان الداية ، عالم الكتب ، بيروت ، ط1 ، 1406هـ \ 1986م ، صـ صـ 58 – 61 .، جعفر بن أحمد الناصري : " ابن الخطيب بسلا " . منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا ، المغرب ، مطابع سلا ، د.م .

الحلالة ... وأما إسماعيل فهلك في بعض النزوات بالمغرب) [40] . ثم يتابع ابن الخطيب قائلا : (وأعقب يوسف محمدا المستقر الآن بالمغرب معظم القدر ، موشح للعظيمة ، وتوجه في خدمة الأمر المريني بأسطول المغرب إلى تونس ... وهو اليوم ببابهم) [41] .

إن هذه الإشارات التي ساقها كاتب دولة بني نصر ، تفيد مدى ما كان بين حكام بني مرين بالمغرب وبني نصر بالأندلس من علائق ودية متينة ، أتاحت لأن تكون مدينة فاس هي الموطن الثاني لهؤلاء الأمراء من أفراد البيت النصري ، بصورة غير معهودة في تاريخ المغرب والأندلس ، فبماذا إذا والحال هكذا ، سيكون حال العمارة والفن بحاضرة فاس ؟ لعل هذا يحملنا – ابتداء – على القول بأن ما سنلمسه من أساليب فنية جديدة ، مع ما ستشهده من تطورات مهمة ، غير مسبوقة في تاريخ الفن المغربي ، إنما كان مرده إلى ذلك الحضور الأندلسي القوي بمدينة فاس ، تحت رعاية حكام بني مرين ، والذي لم يقتصر نتاجه على تلك الحاضرة خاصة ، بل كان دائم الحضور في المنجزات العمرانية السلطانية بكافة حواضر ومدن المغرب الأقصى ، بل وتعداه إلى المغرب الأوسط بحاضرتهم تلمسان [42] ، مما نتج عنه ما يمكن تسميته بـ : (الوحدة الفنية) بين حاضرتي فاس وتلمسان في العصر المريني .

---

[40]– أبو عبد الله محمد لسان الدين ابن الخطيب : " اللمحة البدرية في الدولة النصرية " . دراسة وتحقيق : د. محمد مسعود جبران ، دار المدار الإسلامي ، ليبيا ، ط1 ، 2009م ، صـ 60 .

[41]– نفسه : صـ 61 .، ومن ذلك ما يشير إليه أيضا ابن الأحمر – وهو كذلك أحد أفراد البيت النصري الذين انتقلوا إلى المغرب في جوار بني مرين وخدمتهم بحاضرتهم فاس وعنهم صنف بعض المؤلفات – ضمن حديثه عن ترجمة أبي عنان ، بقوله :

حضرته (أي فاس الجديد) حل بها الأماثل ... إذ فخرها ما إن له مماثل

بها بنو الملك (أي بني الأحمر) أقاموا في اعتزاز ... وسل سيف البذل فيها باهتزاز .

أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر : " النفحة النسرينية واللمحة المرينية " . حققه وقدم له : د. عدنان محمد آل طعمة ، دار سعد الدين ، دمشق ، د.ت ، صـ 27 .

[42]– لم يقتصر الحضور الأندلسي بحاضرة تلمسان المرينية تحت رعاية بني مرين وحسب ، بل إن هناك إشارات مصدرية مهمة ، تفيد باستقدام حكام بني زيان للصناع والفنيين الأندلسيين لبناء قصورهم ومنشآتهم بها . من ذلك ما يشير إليه البعض – نقلا عن ابن خلدون – من أن أبو حمو الأول (707 – 718 هـ \ 1308 – 1318م) ، طلب من السلطان أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر ملك غرناطة ، أن يبعث إليه عددا من صناع وفناني الأندلس لبناء القصور بحاضرته تلمسان ، لما كانت تحتفظ به في ذلك الوقت من خشونة الحياة البدوية ، وشرع في بناء هذه القصور في عهد أبي حمو ، وتم بناؤها في عهد خلفه أبي تاشفين ، بعدما أرسل إليهما سلطان غرناطة أعظم مهندسي مملكته ، وأمهرت تلمسان وقتئذ بالقصور ، الدور ، الحدائق ، والجنات التي لم يبن مثلها بعد ذلك ، والتي منها دار الملك ، دار السرور ، ودار أبي فهر .

السيد عبد العزيز سالم : " قرطبة حاضرة الخلافة " . جـ2 ، صـ 60 .، " التأثيرات المعمارية في الأندلس " . ضمن كتاب : " دائرة معارف الشعب " ، كتاب الشعب 64 ، صـ صـ 167 –168 .، علي أحمد علي كرير : " المهاجرون الأندلسيون وتأثيراتهم على بلاد المغربين الأدنى والأوسط خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (13 – 14 م) " . دار الكتب الوطنية ، بني غازي ، ليبيا ، ط1 ، 2013م ، صـ 220 .

من المهم جدا ، التأكيد هنا على أسبقية ما اصطلح على تسميته بـ : (طراز الحمراء) [43] ، بغرناطة بني نصر ، قبل أن نشهد حضوره بمآثر بني مرين بالمغرب ، وهذا ما أقررته في دراسة أخرى معمقة ، حول جذور هذا الطراز الفني ، انتهيت فيها إلى أن هذا الطراز إنما ولد بالأندلس ، إثر تصدع الكيان الموحدي بعد هزيمة العقاب (609هـ \ 1212م) – وقيام دويلات الطوائف مرة أخرى – كتوجه فني جديد ، يعكس أحد مظاهر تقلص دولة الإسلام في الأندلس ، وقد كتب لهذا الطراز الجديد ، الهجرة مع من هاجر من الأندلسيين إلى بر العدوة ، ليشهد مولده بإفريقية الحفصية ، قبل أن يشهده المغرب المريني [44] ، وهذه الأسبقية لهذا الطراز الفني بغرناطة النصرية قبل المغرب المريني ، هي ما يفيد بها كذلك بعض المتخصصين [45] .

أصبح من المفيد الآن ، استقراء بعض الإشارات المصدرية ، مع الاستدلال كذلك ببعض الشواهد المادية ، التي تؤكد ذلك الحضور الأندلسي ، ومدى أثره على العمارة وفنونها ببلاد المغرب في العصر المريني . أول ما يمكن ذكره ، ما أفاد به صاحب " الذخيرة " ، ضمن حديثه عن بناء الجامع الأعظم من فاس المرينية الجديدة ، بقوله : (وفيها (أي سنة 677هـ \ 1278م) ابتدئ بعمل منبره الذي به الآن على يد المعلم الغرناطشي الرصاع) [46] . يفيد ابن القاضي أيضا ضمن ترجمته لـ : " مفضل بن محمد بن إبراهيم العذري " ، المعروف بـ : " ابن الدلاي " ، وهو من أهل ألمرية ، أنه : (كان من أهل الفضل والمعرفة ... ورحل إلى المشرق ... وكر إلى الأندلس ، فولي قضاء ألمرية وبرجة ووادي آش ومالقة ، ثم أجاز البحر إلى المغرب ، فولاه الخليفة يعقوب بن عبد الحق المريني قضاء الجماعة بحضرة فاس ، وجعل له النظر على صاحب الشرطة وصاحب الحسبة ، فكانا لا يقطعان أمرا دونه ، وعلى يديه بنيت

---

[43] – طراز الحمراء : هو ما اطلقه البعض على الفن النصري الغرناطي بقصور الحمراء ، والذي يتسم بالحشد الزخرفي الهائل ، وملئ كافة المسطحات بالعناصر الزخرفية المتنوعة ، وتداخلها مع بعضها البعض في تناغم وانسجام رائع ، وذلك كله بصورة غير مسبوقة في تاريخ الفن الأندلسي . انظر : أرنست كونل : " الفن الإسلامي " . ترجمة : د. أحمد موسى ، دار صادر ، بيروت ، 1966م ، صـ صـ 130 – 131 .

[44] – رامي ربيع عبد الجواد راشد : " طراز الحمراء بغرناطة الإسلامية : محاولة في التأصيل والتفسير " . بحث قيد النشر بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان ، جامعة عبد المالك السعدي .

[45] – انظر : فون شاك : " الفن العربي في إسبانيا وصقلية " . ترجمة : د. الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، مصر ، ط2 ، 1406هـ \ 1985م ، صـ 70 .، باسيليو بابون مالدونادو : " العمارة الإسلامية في الأندلس . عمارة القصور " . ترجمة : علي إبراهيم المنوفي ، مراجعة : محمد حمزة الحداد ، منشورات المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط1 ، 2010م ، مج 3 ، " العمارة النصرية والمدجنة " ، صـ صـ 43 ، 171 .، صوفي ماكاريو ، غابرييل مارتينيث غروس : " قصر الحمراء : تاريخ معلمة ومعلمة تاريخ " . ضمن كتاب : " قصر الحمراء ذاكرة الأندلس " ، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات ، الرباط ، إشراف وترجمة : د. عبد الواحد أكمير ، تقديم : د. عثمان الرواف ، ط1 ، 2015م ، صـ 295 .

[46] – علي بن أبي زرع الفاسي : " الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية " . دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1972م ، صـ 162 .

المدرسة القديمة التي بالحلفويين [47] بقبلة جامع القرويين ، وهو أول من سن سنة بناء المدارس بحضرة فاس) [48] . كذلك استعان أبو يوسف يعقوب بابن الحاج الإشبيلي : (من العارفين بالحيل الهندسية ، بصيرا باتخاذ الآلات الحربية الجافية ، والعمل بها ، وانتقل إلى مدينة فاس على عهد أبي يوسف المنصور بن عبد الحق ، واتخذ له الدولاب المنفسح القطر ، البعيد المدى ... حسبما هو اليوم ماثل بالبلد الجديد ، دار الملك بمدينة فاس ، أحد الآثار التي تحدو إلى مشاهدتها الركاب ، وبناء دار الصنعة [49] بسلا) [50] . وإلى هذا المهندس الإشبيلي ينسب كذلك توصيل ماء عين غبولة [51] ، إلى قصبة رباط الفتح بأمر أمير المسلمين يعقوب عام 683هـ\ 1284م [52] .

هكذا يتجلى الحضور الأندلسي قويا ، في مجال العمران منذ بداية عصر بني مرين ، كبرهان قاطع على استمرار ذلك التيار الأندلسي المتدفق ، الذي اصطبغت به مآثر ذلك العصر ، وهو ما يتأكد بصورة أكبر من خلال شهادات ابن خلدون المعاصر لذلك العهد ، إذ يفيد هو الآخر – كما سبق ذكره – بأنه قد حصل في دولة بني مرين بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي [53] ، كما يشير في موضع آخر من " المقدمة " ، ضمن حديثه عن : " الطراز " ، كشارة من شارات الملك ، إلى أن الموحدين : (لم يأخذوا بذلك أول دولتهم ... وأما لهذا العهد فأدركنا بالمغرب في الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها رسما جليلا ، لُقنوه من دولة ابن الأحمر معاصرهم بالأندلس) [54] .

---

[47]– هي المعروفة الآن بـ " مدرسة الصفارين " ، وللمزيد عنها من الناحيتين المعمارية والفنية انظر : محمد السيد أبو رحاب : " المدارس المغربية في العصر المريني : دراسة آثارية معمارية " . دار الوفاء ، الأسكندرية ، ط1 ، 2011م ، صـ صـ 272 – 284 .، نعيمة الحضري : " المدارس المرينية بفاس : دراسة تاريخية معمارية " . مجلة التاريخ العربي ، العدد 38 ، خريف 1427هـ \ 2006م ، صـ صـ 377 –380 .،

M.A.Peretie : " Les Medrasas de Fès " . Archives Marocaines , V , XVIII , Paris , Lerous , 1912, PP 262 – 265 .

[48]– ابن القاضي : " جذوة الاقتباس " . صـ 361 .

[49]– دار الصنعة : مؤسسة صناعية مختصة في صنع أنواع مختلفة من السفن ، صغيرة وكبيرة ، تجارية وعسكرية ، وقد عرفت هذه الدار في تاريخ المغرب الأقصى عبر عصوره المتعاقبة . للمزيد انظر : رشيد السلامي ، محمد فتحة : " دار الصناعة " . معلمة المغرب ، مطابع سلا ، المغرب ، 1421هـ \ 2000م ، جـ 12 ، صـ صـ 3926 – 3928 .

[50]– ابن الخطيب : " الإحاطة " . جـ2 ، صـ صـ 139 – 140 .، ابن القاضي : " جذوة الاقتباس " . صـ 302 .

[51]– عنها انظر : أحمد الطاهري : " عين غبولة " . معلمة المغرب ، جـ18 ، صـ صـ 6236 – 6237 .

[52]– ابن أبي زرع : " الأنيس " . صـ 537 .

[53]– ابن خلدون : " المقدمة " . جـ2 ، صـ 143 . وانظر أيضا : عبد الإله بنمليح : " مدينة فاس في ذاكرة ابن خلدون " . مجلة التاريخ العربي ، العدد 45 ، صيف 1429هـ \ 2008م ، صـ 279 .

[54]– ابن خلدون : " المقدمة " . جـ1 ، صـ 458 .

لا تفوتنا الإشارة هنا إلى حادثة جلب بيلة [55] رخامية من الأندلس ، وعنها يقول الجزنائي : (وقد جُلب لمولانا أمير المسلمين أبي الحسن برد الله ضريحه ، من نظر ألمرية بيلة من الرخام الأبيض زنتها مئة قنطار وثلاثة وأربعون قنطارا ، وسقت من ألمرية إلى بلد العرائش إلى أن طلعت بوادي قصر عبد الكريم ، وحملت منه على عجل الخشب تجرها القبائل والرؤساء إلى أن وصلت منزل أولاد محبوبة الذين على ضفة وادي سبو ، ووسقت منه أيضا إلى أن وصلت ملقى وادي فاس ، وحملت منه على عجل الخشب أيضا ، يجرها الناس إلى أن وصلت مدرسة الصهريج التي بعدوة الأندلسيين ، ثم نقلت منها بعد ذلك بأعوام إلى مدرسة الرخام ، التي أمر ببنائها أمير المسلمين أبو الحسن رحمه الله بجوفي جامع القرويين ، وهي التي بوسط صحنها الآن ، وكان جلبها من ألمرية سنة خمس وعشرين وسبعمئة) [56] .

لعل هذا التفصيل – الذي تعمدت ذكره كاملا – يدعونا إلى التساؤل : لماذا كل هذا العنت لجلب بيلة رخامية من الأندلس إلى فاس ؟ أليس في فاس أو في حواضر المغرب الكبرى ما يكفي مؤنة ذلك ، سواء من ناحية المادة الخام أو الصناع والفنيين ؟ ألا يدل هذا الحدث على الارتباط الوثيق بين المغرب والأندلس في تسيير المنجزات العمرانية السلطانية المرينية مهما كلف الأمر من مؤنة وعنت ؟ وإذا ما كان هذا هو الحال مع مثل تلك الأعمال البسيطة التي كان من الممكن أن يكون الاعتماد فيها على ما هو محلي من حيث المادة الخام أو الصناع ، فكيف يكون الحال إذا مع تلك المنجزات الكبرى كالمدارس ذاتها أو المساجد والقصور ؟ أيمكن التسليم بأن هذه البيلة جاءت إلى المغرب دون أن يكون معها من العمال والفنيين الأندلسيين برسم الخدمة في تلك المدرسة المذكورة ؟

إذا ما انتقلنا إلى فترة الأوج والازدهار على عهد أبي عنان ، فإن مما يمكن تسجيله ما يذكره كاتبه وحافظ سره ابن الحاج النميري الغرناطي [57] ، ضمن حديثه عن الزاوية المتوكلية التي أمر بإنشائها مخدومه أبي عنان ، حيث يشير إلى صهريج ممتد من الجامع إلى القبة ، بديع الطول والعرض ، وبشاطئ هذا الصهريج أسدان من الصفر ، وكأنهما من التبر ، ينحدر من أفواههما الماء في منظر عجيب أخاذ [58] . ألا يذكرنا هذا بما كانت عليه القصور الملكية بالأندلس [59] ، وبهو الأسود بالحمراء خير شاهد ؟

---

[55]– البيلة : صهريج من رخام مستطيل ملاصق للأرض والكلمة إسبانية . الجزنائي : " جني زهرة الآس " . صـ 70 ، ح (133) .

[56]– الجزنائي : نفسه . صـ صـ 37 – 38 .

[57]– ترجمته : ابن الخطيب : " الإحاطة " . جـ1 ، 342 – 363 .

[58]– ابن الحاج النميري : " فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب " . دراسة وإعداد : د. محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1990م ، صـ 208 .

[59]– انظر : السيد عبد العزيز سالم : " نماذج من التحف الفضية والتماثيل البرونزية من إنتاج دار الصناعة بكل من قصر قرطبة ومدينة الزهراء في عصر الخلافة الأموية بالأندلس " . ضمن بحوث ندوة : " الأندلس : الدرس والتاريخ " ، صـ صـ 169 – 171 .

نعرض أخيرا إلى المدرسة البوعنانية ومسجدها الجامع الملحق بها ، تلك المأثرة الخالدة التي قل نظيرها في الأقطار المغربية [60] ، بما هي عليه من حشد زخرفي هائل ، وتغطية لكافة المسطحات في الاتجاهين الرأسي والأفقي ، بشتي العناصر الزخرفية المتنوعة والمتداخلة مع بعضها البعض في تناغم وانسجام فني رائق ، بكيفية لا يمكن معها التصور أنها منشأة دينية ، بل قصر من القصور ، وحق لنا أن نتساءل : من أين هذا الذوق الفني غير المعهود على أرض المغرب ؟ أليس هذا هو طراز الحمراء ؟

هكذا يبدو كيف كان الأثر الأندلسي جليا على العمارة والفن المغربي في العصر المريني ، وبهذا يمكن القول في اطمئنان بأن ما أشار إليه ابن خلدون ، من أن حكام بني مرين استعملوا الأندلسيين سائر أيام دولتهم ، لا يقتصر وحسب على الجوانب الإدارية والسياسية ، بل يدخل فيه ذلك الجانب العمراني ، الذي لا تزال آثاره شاهدة على تلك البصمة الجلية للفن الأندلسي الغرناطي ، حيث الحشد الزخرفي الهائل لكافة العناصر الزخرفية المتنوعة ، وملئ كافة المسطحات ، في تناغم ساحر بين الترصيع بالزليج والنقش على الجص والخشب ، وهكذا ولد طراز الحمراء بغرناطة بني نصر ، ثم هاجر إلى المغرب المريني مع المهاجرين ، ومع أمراء البيت النصري الذين آثروا جوار ملوك بني مرين بحاضرتهم فاس .

نخلص من هذا كله لإقرار حقيقة لا يمكن الآن إنكارها ، ألا وهي ، أن ما نراه إلى الآن من مخلفات كل من العصرين المرابطي والموحدي ، ومن بعدهما المريني ، إنما هو في حقيقة الأمر ، الفن الأندلسي ، الذي حُمل إلى المغرب على يد المدارس الفنية الأندلسية ، التي استعان بها هؤلاء لتشييد مآثرهم ، بعد تبنيهم ورعايتهم لهذا التيار الفني الجديد ، بصورة رسمية على أرض المغرب ، والذي اتسم في العصر المرابطي بالتأثر الكامل بما كان عليه الفن الأندلسي في عصري الخلافة الأموية ، وملوك الطوائف ، مع تطويره [61] ، دون أن يكون هناك توجهات فنية أخرى يرعاها هؤلاء المرابطون ، وهذا على خلاف ما آل إليه في العصر الموحدي ، والذي تأثر بمبادئ تلك الدعوة الموحدية من حيث الاقتصاد ، والميل إلى البساطة والتجريد [62] . أما في

---

[60]– وصفها ابن بطوطة ضمن حديثه عن مآثر مخدومه أبي عنان بقوله : (ولا نظير لها في المعمور اتساعا وحسنا وإبداعا وكثرة ماء وحسن وضع ، ولم أر في مدارس الشام ومصر والعراق وخرسان ما يشبهها) .

أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي : " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " . تقديم وتحقيق : د. عبد الهادي التازي ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، سلسلة التراث ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1417هـ \ 1997م ، مج4 ، صـ 202 .

[61]– عن بعض ملامح هذا التطور انظر : الحاج موسى عوني : " فن المنقوشات " . صـ 71 .، عبد العزيز محمود لعرج : " جمالية الزخارف النباتية في الفن الإسلامي بجامعي تلمسان الكبير وسيدي بلحسن " . ضمن كتاب : " تلمسان الإسلامية " ، جـ1 ، صـ صـ 218 – 219 .، مبارك بو طارن : " التأثيرات الفنية الأندلسية " . صـ صـ 236 – 239 .

[62]– يرى البعض أن هذا الاقتصاد والتقشف في الزخرفة في الفن الموحدي إنما كان بمنشآتهم بالمغرب ، أما في الأندلس فقد كانت أكثر غنا وثراء ، كما كان عليه حال الفن المرابطي . انظر : باسيليو بابون مالدونادو : " عمارة المساجد في الأندلس " . ترجمة : د.

العصر المريني ، فإنه يقرر التراجع – بصورة محسومة – عن هذا التوجه الموحدي المتقشف ، والاتجاه بكل ثقل – وكأنه تحرر من القيود – إلى الاستغراق التام في الحشد الزخرفي الهائل بصورة غير معهودة ، محاكيا في ذلك الفن الغرناطي ، بعدما احتضنت حاضرتهم فاس تلك الوفود المهاجرة إليها طوعا أو كرها ، ولما كان بين ملوك بني مرين وبني نصر من علائق ودية متينة سمحت باستقرار العديد من أمراء البيت النصري في كنفهم ، بما سيترتب عليه بلا شك نهضة عمرانية وفنية جديدة ، مضاهية لما كانوا ينعمون فيه بحمراء غرناطة .

علي إبراهيم منوفي ، منشورات هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ، ط1 ، 1432هـ \ 2011م ، جـ3 " طليطلة وإشبيلية " ، صـ 216 .